إبراز الهوية الثقافية الحضرمية في كتابات المدن الحضرمية
ـ كتاب دمون لبامطرف أنموذجاً

محمد يسلم عبدالنور*

الملخص

يعد كتاب "دمون . قراءة في ماضيها والحاضر" لعمر عبدالله بامطرف من أكبر الكتب وأهمها، والتي تناولت تاريخ المدن والبلدات الحضرمية، هي بلدة دمون تريم؛ فالكتاب يعد موسوعة علمية في تاريخها بكافة جوانبه السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية والعمرانية، منذ ظهورها وإلى العصر الراهن، ولعل عدد صفحاته البالغة (850) صفحة دليلٌ على ذلك.

وقد أبرز الكتاب الهوية الثقافية الحضرمية، فبرغم أن حديثه عن بلدة دمون يعد جزءًا كبيرًا منه عن مدينة تريم؛ إذ هي . أي دمون . اليوم حيٌّ من أحيائها، وتقع في الجزء الشمالي منها، رغم أنها لم تكن في سابق عهدها جزءًا منها.

وبما أنَّ تلك القراءة التي أبداها المؤلف لبلدته، التي هي كما قلت قراءة أيضًا لمدينة تريم، هي أيضًا قراءة للكيان الجغرافي الكبير حضرموت، بحكم تشابه غالب سماتها وتطابق صفاتها ومميزات تلك الهوية، بالحديث عن العادات والتقاليد التي امتازت بها حضرموت عمومًا بما يدخل في علم الأنثروبولوجيا (التاريخ البشري) إلى جانب الفنون الثقافية التي كان لها أثر في إبراز شخصية تلك المدن والبلدات على وجه الخصوص، لما يستعرضه البحث مفصَّلًا، بعد الحديث عن الكتاب ومادته.

الكلمات المفتاحية: الهوية الثقافية الحضرمية . كتاب دمون لبامطرف . العادات والتقاليد . الفنون الثقافية.

المقدمة:

تُعدُّ الهوية الحضرمية نتاجًا تراكميًا لتجارب تاريخية وثقافية واجتماعية متشابكة، تتجلى بوضوح في تفاصيل الحياة اليومية لمجتمعاتها المحلية، ويأتي كتاب "دمون قراءة في ماضيها والحاضر" مصدرًا غنيًّا يوثق جوانب متعددة من حياة هذه البلدة الحضرمية، من جغرافيتها ومكانتها السياسية والاقتصادية، مرورًا بعاداتها وتقاليدها، ووصولًا إلى أنشطتها الثقافية والشخصيات التاريخية التي أنجبتْها.

تهدف هذه الدراسة إلى قراءة الكتاب قراءة تحليلية تستخرج منه الملامح التي تسهم في إبراز الهوية الحضرمية، من خلال تفكيك محاوره وإعادة تركيبها ضمن إطار نظري للهوية الثقافية، وربطها بالمفاهيم الثقافية المعاصرة.

وتخلص الدراسة إلى أنّ بلدة دمون تمثل نموذجًا مصغرًا للهويّة الحضرمية في بعدها المكاني والسياسي والاقتصادي والاجتماعي؛ إذ يتجسد في تجربتها مزيجٌ من الاستمرارية في القيم والتقاليد، مع انفتاحٍ متدرج على التحوُّلات المعاصرة. كما تكشف القراءة أن العادات، والتعليم، والأنشطة الثقافية، والألعاب الشعبية، والشخصيات التاريخية تشكل في مجملها روافد أساسية للذاكرة الجماعية الحضرمية.

إنَّ إبراز الهوية الحضرمية عبر نصوص محلّيَّة مثل نصوص كتاب دمون، لا يضيء خصوصية المكان فحسب، بل يفتح أيضًا أفقًا لدراسة الهويات الفرعية الأخرى في حضرموت، بما يعزز الفهم الشامل للهوية الحضرمية في بعدها الكلي.

وتبرز **بلدة دمون**، الواقعة ضمن مدينة **تريم** في وادي حضرموت، أحد النماذج الحيّة التي تجسد ملامح الهوية الحضرمية في تداخل أبعادها الجغرافية والتاريخية والثقافية؛ إذ تعود نشأة دمون إلى ما قبل الإسلام، وظلّت على امتداد القرون عامرةً بأهلها، حافظةً لذاكرتها الاجتماعية والتراثية، ومُسهِمةً في

* أستاذ التاريخ الإسلامي وحضارته ـ كلية الآداب ـ جامعة حضرموت.

تشكيل الصورة العامة لحضرموت.

إنّ استمرارية دمون في الوجود البشري والعمراني حتى اللحظة، بما تحمله من عادات وتقاليد ومؤسسات معرفية ودينية، يجعلها فضاءً مثاليًا لقراءة الهوية الحضرمية واستجلاء عناصرها الأصيلة.

يسلّط الكتاب الضوء على هذا البعد، من خلال تناوله لمجموعة واسعة من الموضوعات، تبدأ من الخلفية الجغرافية والأوضاع السياسية والاقتصادية، وتمتد إلى الحياة الاجتماعية والعادات والتقاليد، والتعليم والدين، والنشاط الثقافي والتراثي، وصولًا إلى الألعاب الشعبية والشخصيات التاريخية.

إنّ هذا التنوع الموضوعي يتيح إمكانية قراءة تركيبية تُسهم في إعادة رسم صورة الهوية الحضرمية في بُعدها المحلي، وربطها بالهوية الكلية لحضرموت.

وانطلاقًا من ذلك، تسعى هذه الدراسة لمعرفة مضامين الكتاب؛ بوصفها نصوصًا كاشفة للهوية الحضرمية، متسائلةً: كيف يمكن أن تُسهم دراسة بلدة محلية مثل دمون في إبراز الهوية الحضرمية في ملامحها المتعددة؟ وما الذي تكشفه عناصر المكان والتاريخ والعادات والتراث من دلالات عن الاستمرارية والتحولات في هذه الهوية؟ إن الإجابة عن هذه الأسئلة لا تضيء خصوصية دمون فحسب، بل تفتح أيضًا أفقًا مقارنًا لدراسة هويات حضرمية محلية أخرى، تسهم مجتمعةً في تكوين الهوية الحضرمية الجامعة.

.خلفية عامة عن الهوية الحضرمية:

إن مصطلح "الهُوية" يعد من المصطلحات التي لها دلالات متنوعة ومختلفة في الفكر العربي؛ وذلك أنه ليس من وضع أهل العربية الأوائل، وقد أوضحها مجمع اللغة العربية بالقاهرة بأنها مشتقة من مادة هُوَ، وتدل على الذات والثبات، وحقيقة الشيء وجوهره الذي يميزه عن غيره[1].

واصطلاحًا: مجموعة السمات والخصائص التاريخية واللغوية والدينية والثقافية والاجتماعية، التي تميز فردًا أو جماعة عن غيرهم، وتمنحهم شعورًا بالانتماء والاستمرارية[2].

تُعَدُّ الهوية الحضرمية من أبرز الهويات الثقافية في جنوب الجزيرة العربية، فهي حصيلة تراكم تاريخي طويل، تداخلت فيه عوامل الجغرافيا والدين والاقتصاد والثقافة، لتنتج شخصية حضرمية متميزة في ملامحها وممارساتها وقيمها.

إن هذه الهوية ليست مجرد إطار جغرافي أو انتماء مكاني، بل هي منظومة متكاملة من السلوكيات والعادات والتصورات التي شكّلت عبر القرون معالم المجتمع الحضرمي، وقد امتازت الهوية الحضرمية بقدرتها على الاستمرارية، وبحفاظها على ثوابت مركزية، مثل المكانة المحورية للعلم والدين، والتماسك الاجتماعي، والانفتاح الاقتصادي عبر الهجرة والتجارة، وفي الوقت نفسه، عكست هذه الهوية القدرة على التكيّف مع التحولات السياسية والاقتصادية التي شهدتها المنطقة عبر التاريخ، مما جعلها أكثر ثراءً ومرونة.

- **أهمية دراسة المدن والبلدات لفهم الهوية**

إن دراسة الهوية الحضرمية في بعدها العام لا تكتمل من دون التعمق في قراءة المدن والبلدات التي شكّلت اللبنات الأساسية لبناء هذه الهوية، فالمدن الكبرى، مثل تريم وشبام وسيئون والمكلا والشحر، والبلدات الأصغر مثل دمون، والغيل، ليست مجرَّد كيانات عمرانية، بل هي فضاءات ثقافية واجتماعية تعكس في تفاصيلها اليوميّة عناصر الهوية الحضرمية، ومن خلال دراسة هذه الوحدات المكانية يمكن الكشف عن التفاعل الحي بين الموروث والتجديد، وبين المحلي والكلّي، كما يمكن إبراز التنوع الداخلي الذي يثري الهوية الحضرمية ويمنحها طابعها الشامل.

إن الاهتمام بالبلدات الصغيرة على وجه الخصوص يتيح فرصة لفهم الهوية من الأسفل، أي من خلال

الحياة اليومية للسكان وعلاقاتهم وأنشطتهم، بعيدًا عن الاقتصار على المراكز السياسية أو الاقتصادية الكبرى.

- **موقع دمون في سياق تريم ووادي حضرموت**

في هذا السياق، تبرز بلدة **دمون** نموذجًا محليًا جديرًا بالدراسة، فهي تقع في وادي دمون ضمن مدينة تريم من وديان حضرموت، ذلك الوادي . حضرموت . الذي عُرف عبر التاريخ بكونه مركزًا للعلم والدين والتجارة، وموطنًا لعدد من الحواضر والبلدات التي أدَّتْ أدوارًا بارزة في تشكيل المشهد الحضرمي.

فوادي دمون وادٍ واسع مفرَّع، به من النخيل المصفقة الكثيرة والأراضي الزراعية الواسعة التي تزرع بها الخضار وأنواع الحبوب، ويشكل مع وادي عيديد، وهما كالجناحين لمدينة تريم، حيث يقع وادي دمون في الجهة النجدية (الشمالية) للمدينة، ويقابله في الجهة البحرية (الجنوبية) الغربية وادي عيديد[3].

ومن شعاب وادي دمون: شعب ماقص، وشعب مفيتوح شمال الأول (شحرة آل عقيل)، وشعب الغبرا في الجبل الشرقي منه، وشعب لوسط في الجبل الشمالي في وسط الوادي[4].

وتتميز دمون بكونها بلدة ضاربة في القدم؛ إذ تشير الشواهد التاريخية إلى أنّ نشأتها تعود إلى ما قبل الإسلام[5]، وقد ظلت عامرة بسكانها حتى يومنا هذا، هذا الامتداد الزمني الطويل يجعلها شاهدًا حيًا على تحولات حضرموت، ومرآةً تعكس جوانب من استمرارية الهوية الحضرمية وتحوّلاتها.

كما أن ارتباطها بمدينة تريم، بما تحمله الأخيرة من ثقل علمي وروحي، يجعل من دمون جزءًا لا يتجزأ من نسيج حضرموت الثقافي والاجتماعي.

- **مشكلة البحث وأهدافه ومنهجيته:**

انطلاقًا مما سبق، تتمحور مشكلة هذه الدراسة في السؤال الآتي: **كيف تسهم بلدة دمون، كما وردت في كتاب "دمون قراءة في ماضيها والحاضر" في إبراز ملامح الهوية الحضرمية؟** وتنبع أهمية هذا السؤال من الحاجة إلى استكشاف كيفية تجلّي الهوية الحضرمية في فضاءات محلية محددة، وكيفية إسهام هذه الفضاءات في صياغة الهوية العامة لحضرموت.

تهدف الدراسة إلى:

1- معرفة مضامين الكتاب واستجلاء مكوناته الجغرافية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

2- إبراز العلاقة بين الهوية المحلية لبلدة دمون والهوية الحضرمية الكلية.

3- تقديم قراءة تركيبية توضّح عناصر الاستمرارية والتغير في الهوية الحضرمية كما تتجلى في حالة دمون.

وتعتمد الدراسة على **المنهج الوصفي النصّي** من خلال تفكيك محاور الكتاب، وربطها بمفاهيم الهوية الثقافية والاجتماعية في الدراسات الحديثة.

وبذلك، فإن هذه الدراسة لا تقتصر على إعادة عرض ما ورد في الكتاب، بل تسعى إلى استكشاف البنية العميقة للهوية الحضرمية من خلال نموذج محلي هو بلدة دمون، في انسجام مع المحور الرئيس للمؤتمر حول المدن والبلدات في حضرموت.

- **التعريف بالمؤلف:**

عمر عبدالله احمد بامطرف: من أبناء بلدة دمون، تلقى تعليمه في المعلامات والكتاتيب، ثم التعليم النظامي، وامتهن العمل التجاري مبكرًا، بدأ نشاطه الكتابي في الستينيات من القرن الماضي بالكتابة في صحيفة الطليعة[6]، له عدد من الكتب الجاهزة للطباعة.

- التعريف بالكتاب:

كتاب "دمون قراءة في ماضيها والحاضر"، صدرت طبعته الأولى عن مكتبة تريم الحديثة 1441هـ/2020م، في (850) صفحة من القطع

المتوسط، ويعد أول وأفضل ما دون ووثق تاريخ البلدة (جغرافيًا وتاريخيًا وسياسيًا وعلميًا وثقافيًا، واقتصاديًا واجتماعيًا، وتراثيًا) وإلى اليوم، مستعرضًا أهم شخصيات البلدة، ولعله أجود وأمتع ما قرأت من الدراسات والبحوث، حتى إنها لتضع في مصاف الدراسات البحثية والأكاديمية. حوى مقدمة وستة فصول وخاتمة وثبتًا للمصادر والمراجع، ورغم تخصصه عن بلدة دمون يعد بما تضمنه من معلومات وخاصة التراثية مرآة عاكسة لمشاهد ومجريات في تريم وحضرموت.

التمهيد

المدخل النظري والمنهجي

1-الهوية الحضرمية: التعريف والأبعاد

تمثل الهوية الحضرمية إحدى أبرز الهويات الثقافية المميزة في الجزيرة العربية، وقد تبلورت عبر قرون طويلة من التفاعل بين العوامل الجغرافية والتاريخية والدينية والاجتماعية.

فالهوية في معناها العام ليست مجرد انتماء سطحي إلى مكان محدد، وإنما هي بنية عميقة من القيم والتصورات والعادات والرموز التي تشكل وعي الجماعة بذاتها، وتحدد أساليب تفاعلها مع الآخر، ومن هذا المنظور، يمكن النظر إلى الهوية الحضرمية بوصفها منظومة تتجلى في مستويات متعددة:

- **البعد الجغرافي والمكاني:** إذ ارتبطت حضرموت بموقعها في جنوب الجزيرة العربية، بين البرّ والبحر، وبين الصحراء والساحل، وهو ما منحها خصوصية بيئية انعكست على أنماط العيش والاقتصاد.
- **البعد السياسي:** المتمثل في قدرة نظام الحكم والمؤسسات السياسية التابعة له على تشكيل شعور الأفراد وتعزيزه، بالانتماء للوطن والجماعة، وإعادة تشكيل الوعي الجمعي، وتعريف الناس بذواتهم وأنهم أعضاء في جسد أمة وثقافة واحدة.
- **البعد الديني والعلمي:** إذ شكّل الإسلام، ومن ثمّ مكانة العلم الشرعي، ركيزة أساسية للهوية الحضرمية، خاصة مع بروز مدن مثل تريم كمراكز علمية وروحية ذات إشعاع واسع.
- **البعد الاجتماعي والثقافي:** بما في ذلك منظومة العادات والتقاليد، والعلاقات الأسرية والقبلية، وطرائق الاحتفال بالمناسبات، وما تحمله من رمزية اجتماعية.
- **البعد الاقتصادي والهجري:** إذ تميز الحضارم بنشاطهم التجاري، وبتجاربهم في الهجرة إلى أصقاع مختلفة، وهو ما أضفى على الهوية بعدًا عالميًا من دون أن يفقدها خصوصيتها المحلية.

إن هذا التداخل بين الأبعاد يوضح الهوية الحضرمية أنَّها ليست كيانًا جامدًا، بل هي عملية مستمرة في إعادة التشكل، تجمع بين الاستمرارية في القيم والثوابت، وبين القدرة على التكيف مع المتغيرات التاريخية.

2- دور المدن والبلدات في بناء الهويات

تحظى المدن والبلدات بأهمية خاصة في دراسة الهويات الثقافية، فهي ليست مجرد تجمُّعات سكانية، وإنما فضاءات اجتماعية وثقافية تعكس في بنيتها العمرانية وأنشطتها اليومية صور الهوية، وتتميز حضرموت بتنوع مدنها وبلداتها؛ إذ نجد إلى جانب الحواضر الكبرى (المكلا، الشحر، سيئون، تريم) شبكة واسعة من البلدات والقرى التي أسهمتْ في إثراء المشهد الحضرمي.

وإذا كانت المدن الكبرى قد أدَّتْ دورًا في إنتاج الثقافة والمعرفة وتوجيهها، فإن البلدات الأصغر كانت بمثابة حواضن للذاكرة الاجتماعية، وبيئات لحفظ العادات والتقاليد، وفضاءات لتجسيد الهوية في صورتها اليومية البسيطة، وبذلك فإن دراسة بلدات مثل دمون لا تقتصر على إعادة قراءة تاريخها، وإنما تتيح الكشف عن كيفية تشكّل الهوية الحضرمية في المستوى المحلي، قبل أن تتبلور في الإطار الأوسع للهوية الكلية.

3- أهمية الكتاب مصدرًا للهوية الحضرمية

يمثل كتاب "دمون قراءة في ماضيها والحاضر" مرجعًا محليًا فريدًا في بابه، إذ يجمع بين الوصف التاريخي والجغرافي والاجتماعي والثقافي لبلدة دمون، بما يعكس تعدد الأبعاد التي تُسهم في تكوين الهوية.

وتكمن قيمة الكتاب في أنه يتيح للباحث فرصة لدراسة الهوية الحضرمية من خلال نص محلي محدد، يُوثّق تفاصيل الحياة اليومية للسكان، من العادات والمهن، إلى الأنشطة الثقافية والتعليمية، وحتى الألعاب الشعبية التراثية والشخصيات التاريخية، فضلًا عن الحياة السياسية والدينية.

إن أهمية هذا المصدر لا تنبع فقط من غزارة مادته وكثرة صفحاته، وإنما أيضًا من كونه يعكس الاهتمام المحلي بتوثيق الهوية، فالكاتب هنا لا يقدّم سردًا مجردًا، بل يعبر عن وعي جمعي بأهمية حفظ الماضي واستحضاره في الحاضر، وهو ما يشكل بدوره جزءًا من عملية بناء الهوية.

4- منهجية الدراسة

تعتمد هذه الدراسة على **المنهج الوصفي النصي،** الذي يقوم على قراءة محاور الكتاب وتفكيكها إلى عناصر أساسية، ثم إعادة تركيبها ضمن إطار نظري للهوية. ويتطلب ذلك:

1- **الوصف والتحليل:** من خلال عرض موضوعات الكتاب المتعلقة بالجغرافيا، والسياسة، والاقتصاد، والعادات، والتعليم، والثقافة.

2- **التفسير الثقافي:** عبر ربط هذه الموضوعات بمفهوم الهوية الحضرمية، وبيان كيفية انعكاسها على شخصية المجتمع المحلي.

3- **المقارنة السياقية:** بوضع بلدة دمون في سياق المدن والبلدات الحضرمية الأخرى، لتوضيح ما تشترك فيه، وما تنفرد به.

كما تستند الدراسة إلى مراجع مساندة في التاريخ والاجتماع والثقافة، إلى جانب الأدبيات النظرية عن الهوية، مما يتيح الجمع بين الوصف النصي والقراءة المفاهيمية.

1- إشكالية البحث وحدوده

تتمثل الإشكالية الرئيسة للورقة في البحث عن كيفية إسهام بلدة دمون، كنموذج محلي، في إبراز الهوية الحضرمية من خلال ما ورد في الكتاب، وتتفرع عنها مجموعة من الأسئلة الفرعية:

- ما أبرز العناصر التي تكوّن هوية دمون المحلية؟
- كيف تتجلى هذه العناصر في الهوية الحضرمية العامة؟
- ما حدود الاستمرارية؟ وما حدود التحول في هوية دمون عبر الزمن؟

أما حدود الدراسة فتقتصر على الوصف النصي للكتاب، مع الاستعانة بالمراجع المساندة، من دون التوسع في الدراسات الميدانية المباشرة، وذلك انسجامًا مع طبيعة البحث وظروف المؤتمر.

المبحث الأول

دمون في سياقها الجغرافي والتاريخي

أولًا: الموقع الجغرافي والامتداد العمراني:

تقع دمّون ضمن نطاق مدينة تريم في وادي حضرموت، محاطة بأودية ومرتفعات جبلية، وهي أراضٍ زراعية خصبة أسهمت في استقرار السكان منذ القدم، وقد أسهم الموقع في تطوير النشاط الزراعي والتجاري، وسمح بامتداد عمراني يتسم بالنسيج السكني التقليدي المتواصل حتى العصر الحديث.

1- تحديد الموقع الدقيق لبلدة دمون ضمن النطاق الجغرافي لمدينة تريم في وادي حضرموت:

لعل الإهمال المقصود وغير المقصود الذي طال تاريخ حضرموت في كثير من أدوارها، وخاصة القديم منها لاقى منه الباحث معوقات وصعوبات جمة في ربط بعض الأحداث التاريخية وتحديد مواقعها، فضلًا

عن أسبابها وأهدافها، وما آلت إليه[7]، حتى أنه . أي الباحث . لا يستطيع أن يبدي رأيًا قاطعًا في الموضوع حتى تتجمَّع لديه الأدلة الكافية[8].

وقبل الولوج في تحديد موقع البلد، فإنَّ هناك خلطًا في بعض المصادر بين البلدة دمون، وبين دمون الغربية– الهجرين–، وهناك تعريف عام بدمُّون، من دون تحديد أيٍّ من المدينتين، ولقد عانى الباحث من هذا الخلط في سبيل الحصول على معلومة يركن إليها عن مدينة دمون امرئ القيس، أهي دمُّون التي قرب تريم، أم دمُّونُ الغربية المحاذية لمدينة الهجرين، وأيُّ دمون عناها امرؤ القيس في أشعاره، وأيهما انتحلت الاسم؟ وأي موقع كان للبلدة– دمون– أهو موقعها الحالي الذي انطمست آثاره وانمحت، أو موقع آخر لم يحدد موقعه بعد؟، ومن إجماع المؤرِّخين – تقريبًا– على أن دمون التي عناها امرؤ القيس هي تلك المحاذية للهجرين، لكنَّ هذا لا يعني إغلاق البحث، فتعدُّد الآراء وتباينها، أو تضاربها، يشحذ الهمم، ويكثف الجهد لدى أُولِي المعرفة لغربلة الموجود وتصحيحه[9]، ولنا أمل في الأجيال القادمة.

دمون اليوم ـ موضوع الدراسة ـ حي من أحياء مدينة تريم، ولم تكن في سابق عهدها جزءًا من مدينة تريم، سواء كان هذا موقعها أو كان لها موقعٌ آخر؛ إذ لم يرد ذكرٌ لها في المصادر الموثوقة أنَّ البلدة كانت جزءًا من مدينة تريم في وقت من الأوقات، بقدر ما تؤكده تلك المصادر أنها مدينة مستقلة عن مدينة تريم في كل أدوار تاريخها إلى ما قبل الاستقلال، في نهاية ستينيات القرن الميلادي الماضي[10].

تقع دمُّون شمالي مدينة تريم على يسار الخارج من تريم إلى الشرق، و إلى عهد قريب كانت في حيز محدود يبدأ من شِعْب متّاش من الناحية الجنوبية شمالي السُّور – الفاصل بين مدينة تريم ودمون– إلى مسجد بلفقيه، وتبدأ مساكن البلدة من بيت آل بن سهيل التميميين، ودار سعد (حاليًا بعد تجديد بنائه بيت سليمان عمر التميمي)، مرورًا بشِعْب "ماقص" الواقع فيه مسجد جامع مشهور، ومسجد السكران، ثم حارة "بامشيطر" الواقع فيها مسجد شهاب الدين والقارة، وانتهاء بشِحْرة آل عقيل[11].

2– توصيف المعالم الطبيعية المحيطة (الأودية، والجبال، والأراضي الزراعية) وعلاقتها بالاستقرار البشري:

سبق أن أشرنا في مقدمة الدراسة إلى وادي دمُّون، وتعداد شعابه الأربعة الأساسية، وقد أقام عبدالله العيدروس (ت 865هـ) [12] وعلي (ت895هـ) [13] ابنا أبي بكر السكران سدًّا – أي موزعًا – في الوادي يوزع ماءه في سواقٍ خمس، ورتب ماءه، في تلك السواقي على نظام، بحيث يجري ماء الوادي من السيول باستيعاب جميع الأراضي المعمورة بالنخيل والزراعة، بصورة لا يبقى معها تغير لمعالم الزراعة، وتروى بواسطته جميع الأراضي البيضاء التي لا تزرع في أي موسم.

وقد قام بتجديد عمارة ذلك علي بن شيخ بن شهاب الدين (ت 1203هـ)[14] ويُسمَّى ذلك السَّدُّ الآن (مضلعة علي بن شيخ) وهي قائمة إلى الآن.

ثانيًا: الجذور التاريخية والنشأة قبل الإسلام:

تشير المصادر التاريخية[15] إلى قدم دمّون ووجودها قبل الإسلام، كما أنها كانت جزءًا من شبكة الطرق التجارية في حضرموت، وقد استقبلت البلدة المؤثرات الثقافية والدينية في المراحل المبكرة، ما أسهم في تكوين ثقافة محلية غنية.

ثالثًا: دمون في العصور الإسلامية:

شهدت دمّون تطورًا في إطار الدولة الإسلامية المبكرة، وارتباطها بمدينة تريم مركزًا علميًا ودينيًا، وأثرت الأسر المحلية تأثيرًا مهمًا في الحياة العلمية والاجتماعية، وكانت البلدة جزءًا من التحوُّلات

السياسية الإقليمية من دون أن تفقد خصائصها المحلية.

1- تحوُّلها في إطار الدولة الإسلامية المبكرة وارتباطها بمدينة تريم مركزًا علميًا ودينيًا:

ارتبطت دمون بالدولة الإسلامية منذ إسلام أهل حضرموت في عام الوفود سنة 9هـ، وإعلان القبائل الحضرمية إسلامها، ومن ثم مبايعتها للخليفة الأول أبي بكر الصديق، ومن بعده من الخلفاء الراشدين، وفي نهاية عهد العصر الأموي أعلن عبدالله بن يحيى الكندي الأباضي (طالب الحق) ثورته سنة 129هـ، واستولى على دار الإمامة، وهي مقر الوالي الأموي على حضرموت وفي الأرجح أنَّه في دمون[16]، وبعد انتصار الأمويين على الأباضيين عادت دمُون وحضرموت إلى تبعيَّتهما للأمويين، ومن ثم للعباسيين، وتدخلان فيما بعد في حكم آل راشد.

2- دور الأسر والعائلات الدمُونية في الحياة العلمية والاجتماعية:

ظهرت في دمون بعض الأسر التي لها أثر واضح وبيّن في الحياة العلمية والاجتماعية، فإلى جانب أسر السادة آل أبي علوي (آل شهاب، وآل الحامد، وآل المشهور، وآل الشاطري)[17] الذي لم يكن دورهم العلمي والاجتماعي في دمون فحسب، بل وفي تريم، وربما في مناطق حضرموت واديًا وساحلًا، ظهرت أسر أخرى كالمشائخ آل باغوث، وآل باشعيب، وآل الزبيدي، والقبائل التميميين (آل سلمة) وغيرهم من القبائل العديدة الأخرى[18].

3- انعكاس التطوُّرات السياسية في حضرموت على مسار البلدة:

في العصر الحديث ظهرت كيانات وسلطنات سياسية استولت على حضرموت، ومن أشهرها سلطنتا الكثيري والقعيطي، وبعد ظهور الثانية (السلطنة القعيطية) انفردت بحكم الساحل، في حين انفردت الأولى (السلطنة الكثيرية) بحكم الوادي، ومع هذا كانت هناك مناطق في الوادي خضعت للسلطنة القعيطية كشبام، ودمُون، منذ سنة 1339هـ /1918م[19]، حتى القضاء عليها وإعلان الجمهورية بعد الاستقلال سنة 1967م.

ومن انعكاسات تلك المرحلة على البلدة عقد الاتفاقيات مع رؤساء العشائر ومقادمتها لتلبية نداء السلطان وقت الحرب، واستتباب الأمن والاستقرار وسلطة النظام والقانون وهيبة الدولة وخنوع كل القبائل والطبقات وقضاياها للسلطة الحاكمة، أدى إلى وعي وطني وسياسي في غالب الشرائح بعد الاهتمام بالتعليم[20].

وبعد الاستقلال استولت الجبهة القومية على الحكم، وتشكلت اللجان الشعبية الثورية الفلاحية والعمالية، أو لجان الدفاع الشعبي، وما نتج عنه من تضييق على حياة الناس، والتدخُّل في خصوصياتهم، وحكمَ الحزبُ والتنظيمُ الواحد، وأرهب المواطنين بطرق عدَّة، لكنَّ إيجابيات تلك المرحلة واضحة للعيان في استتباب الأمن والنظام، واستقرار جميع المواد ومناسبتها لدخل الفرد، ومجانيَّة التعليم والعلاج، وإلغاء النظام الطبقي[21].

ومنذ سنة 1990م دخلت البلد ومعها حضرموت في نطاق جغرافي وسياسي واحد يضمُّ جميع مناطق حضرموت واليمن بما يسمى الوحدة اليمنية وقيام الجمهورية اليمنية.

رابعًا: الاستمرارية العمرانية والبشرية حتى العصر الحديث:

بعد قيام الجمهورية اليمنية أُعِيدت الأراضي المؤمَّمة والمصادرة أو بعضها، وكذا النخيل وغيره، فضلًا عن من ينكر معرفته بها ممن يقوم بزراعتها لجهل ورثة مُلَّاكها موقعها، أو التي فقدت وثائقها أو طمست معالمها[22].

استمر عمران البلدة رغم التغيرات الاقتصادية

والسياسية، كما شهدت مظاهر التكيُّف مع المتغيرات مثل الزراعة، والتجارة، والهجرة، والتعليم، مع الحفاظ على الملامح الجوهرية للشخصية الدمُّونية.

1-استمرار عمران البلدة رغم التغيرات الاقتصادية والسياسية عبر العصور:

لقد اتسعت البلدة، وخاصة من الجهة الشمالية (النجدية) وظهرت تجمعات سكانية في مناطق جديدة، عرفت بمسميات جديدة كسوادة، وكديد والمشروخة والغبرا ولوسط، فضلًا عن ارتباطها من الجهة الجنوبية (البحرية) بمناطق وحارات مدينة تريم.

2- مظاهر التكيف مع المتغيرات (الزراعة، والتجارة، والهجرة، والتعليم):

نتيجة للتغيرات في أمور الحياة كافة في مناحيها كافة وتطورها، واظب المواطن المحلي مع تلك المتغيرات وتكيف معها، فقد كانت الزراعة التي تعد أهم الحرف التي عرفها الإنسان وأقدمها لتأمين غذائه وحاجاته الأخرى، فقد كان يستخدم مثل غيره من أبناء زمانه عملية السناوة لاستخراج الماء من البئر بعملية يدوية شاقة، وقبيل منتصف القرن العشرين الميلادي استخدمت المضخات الزراعية الآلية، ومن ثم بمواصفات أخرى حديثة، وصولًا إلى استخدام المضخات الارتوازية، أدى إلى وفرة الإنتاج الزراعي وتنوُّعه[23].

والحال نفسه في التجارة والهجرة، فقد كان محصورًا في أسرتين أو ثلاث، وكانت بضائعهم وتجارتهم من الشحر عبر الجمال، فقد تحسَّنت الحالة الاقتصادية بعد عوزٍ وفقرٍ ومجاعةٍ شهدتْها حضرموت الوادي في أربعينيات القرن الماضي، فكانت الهجرة الداخلية إلى عدن أو الخارجية، وتأسيس الدكاكين التعاونية بالاكتتاب، مما أدى إلى ظهور التجارة الخارجية، وازداد الحال تحسُّنًا بعد الوحدة، فقد كان الانفتاح العام وتحرير التجارة وحرية السوق، فانتشرت المتاجر وبتخصصات متنوعة[24].

أما التعليم فبعد أن كان مقتصرًا على المعلامات والكتاتيب الأهلية للجنسين الذكور والإناث، فُتِحَت المدارس الحكومية في خمسينيات القرن الماضي الابتدائية والمتوسطة، أما الثانوية فيرسل الطلبة إلى السودان أو السعودية، وبعد الاستقلال عرفوا رياض الأطفال وفصول محو الأمية للرجال والنساء، مع استمرار المدارس، وبعد الوحدة تعدَّدت حلقات الدراسة الأهلية ومراكزها لتحفيظ القرآن للجنسين[25].

3- ملامح الشخصية الدمونية في إطار الهوية الحضرمية العامة:

تطغى على الشخصية الدمونية . إن جاز لنا التعبير . ملامح الاستقامة الظاهرة ومظاهرها، والحفاظ على العبادات المفروضة والمسنونة، وعدم تركها أو التهاون في شيء منها عن قصد، فضلًا عن عدم تجاوز الحدود الشرعية في الحرام والحلال، والاعتداء على أملاك الغير وانتهاكها بسلب أو نفوها بسباب وتجريح، واحترام الكبير وتوقيره، وتبجيل العالم والمرشد في دينهم ودنياهم[26].

المبحث الثاني

مكونات الهوية الحضرمية في كتاب دمون

a. البعد السياسي والاقتصادي

يشكّل البعد السياسي والاقتصادي أحد الركائز الأساسية للهوية الحضرمية كما تتجلّى في بلدة دمّون، ويشير الكتاب إلى أن البلدة كانت جزءًا من النسيج السياسي لوادي حضرموت، حيث توزعت السلطة بين العائلات المحلية والزعامات التقليدية، ما انعكس على أسلوب تنظيم الحياة الاجتماعية والممارسة الاقتصادية، وقد أسهم هذا النظام المحلي في تعزيز الانتماء الجماعي، والحفاظ على التوازن بين السلطات التقليدية وأفراد المجتمع، وهو ما يعكس قدرة البلدة على الحفاظ على هوية مستقرة رغم تحولات الساحة

السياسية الإقليمية.

من الناحية الاقتصادية، يتضح أنّ دمّون اعتمدت على مجموعة متنوعة من المهن والحرف التقليدية، مثل الزراعة، وصناعة الفخار، والتجارة الصغيرة، إلى جانب أعمال الحرف اليدوية، هذه المهن لم تكن مجرد وسيلة لكسب العيش، بل كانت أداة أساسية لتشكيل الهوية الحضرمية في البُعد الإنتاجي؛ إذ إن العمل المشترك والحرف المحلية رسّخت قيم التعاون، والاعتماد على الذات، والاعتزاز بالموروث الثقافي، وهو ما يمثل عنصرًا أساسيًا في الهوية الحضرمية.

كما يشير الكتاب[27] إلى تأثير التجارة والهجرة على الاقتصاد المحلي؛ إذ أسهم الانخراط في شبكات التجارة الإقليمية والدولية في إثراء الثقافة الاقتصادية للبلدة، ممَّا مكّن السكان من الانفتاح على معارف وتجارب جديدة من دون أن يفقدوا خصوصيتهم الحضرمية.

1- تحليل الأوضاع السياسية كما وردت في الكتاب وتأثيرها على المجتمع المحلي:

لعل الشيء المميز في الكتاب[28] أنه أفرد الحديث عن الأوضاع السياسية التي شهدتْها دمون جزئية من تريم ومن مناطق حضرموت على العموم، بعد التحرير وإعلان الجمهورية في سنة 1967م، وهي وان كانت سابقًا في عداد التاريخ المسكوت عنه بسلبياته وإيجابياته، التي أفرد المؤلف الحديث عنها، ليس في سردية تاريخية بل في نطاق تحليلي معاصر لها، وموقفه منها، تلك الأحداث التي استمرت إلى وقت إعداد الكتاب؛ إذ شهدت البلدة أحداثًا دامية ومأساوية لا تقل عُنفًا وبشاعة عن أحداثها الثورية، اللهم إنها كانت بسواعد أفراد وعائلات أو منظمات وأحزاب، وما أفرزته من تأثيرات في المجتمع المحلي، ساردًا قصصًا وحكايات عاصرها أو حُكِيت له، في نطاقها التاريخي للحدث.

بدءًا من قيام جمهورية اليمن الجنوبية الشعبية (الجبهة القومية) والخطوة التصحيحية، وما صاحبها من ثورة (انتفاضة) العمال والفلاحين ومن نهج المنهج نفسه من الطبقات الأخرى، وتصنيف أعداء الثورة بالكهنوت والإقطاع والبرجوازي، وما لاقاه هؤلاء من . أبنائهم . الثوّار من زجهم في السجون وغيره، مما اضطر بالمؤلف أن يعنون في هذا السياق . سياق التصنيف . عنوان: تصنيف غير موفق[29].

ثم تأتي مرحلة اللجان الفلاحية والشعبية ومنظمة الدفاع الشعبي، حاكيًا أيضًا في هذا بعض غرائب هذه المرحلة، ثم مرحلة المبادرات الجماهيرية، ورغم أن المؤلف امتدح تلك المبادرات التي تأتي بنتائج ملموسة على البلد والمواطن، لم يسكت عن تلك المبادرات العبثية التي لا فائدة منها ولا طائل، والأمر نفسه في مشروع محو الأمية وقانونها؛ إذ أخذ التثقيف السياسي أكثر من تعليم مبادي القراءة والكتابة وخاصة للمرأة.

وبعد أن انزاحت كآبة تلك المرحلة، وتُوِّجت أخيرًا بعقدِ وحدةٍ واتفاقٍ مع الشمال وإعلان قيام الجمهورية اليمنية سنة 1990م، التي أنهت إرهاب الدولة، ليحدد المؤلف – لعله وافق الصواب – أنها لم تكن عن قناعة وترتيب مسبق رغم الدعوة لها من مدَّة، لينخرط شباب البلدة إلى التجمعات والأحزاب الدينية بعد انخلاعهم من الحزب الاشتراكي، ونَعِم المواطنون بحريَّةٍ في القول والفعل، وازداد الإقبال على التعليم من الفئات التي حرمت من قبل، أو التي لم يسعفها التعليم بأي شكل من الأشكال، مما زاد الوعي والإدراك لدى الناس، ومع ذلك فقد تقاسم المراكز في الدولة ذوو الأحزاب وخاصة المنتصرون بعد حرب الانفصال سنة 1994م، واستحكمت العصبية القبلية والمذهبية، وعُرفت فيما يسمى المجالس المحلية، وليس بخافٍ على أحد الانتعاش الاقتصادي

والمعيشي، وكانت فترة رخاء ورفاهية في البلدة، وظهرت التكتلات الفئوية والعنصرية، وظهر القات وانتشر حملُ السلاح، أدى ذلك إلى مآسٍ، وازداد التعصب سواء القبلي أو الحزبي أو المذهبي، وما تبعه من تشدُّد وغلو عن قصد وغير قصد، بل وفتوى مذهبية تؤيد طرفًا، وتبطل أمر الآخر، وهنا يذكر المؤلف مساوئ ومآسي ذلك، مشيرًا في ذلك إلى غياب الشخصية المرجعيَّة للبلد، وما حدث بعدئذ من أحداث دامية نتركها لقارئ الكتاب[30].

2- دور البلدة في الهياكل السياسية والإدارية لوادي حضرموت:

يتجلى ذلك في تعيين مقدَّم آل سلمة من أبنائها التميميين في مدة متقدمة وسابقة (عصر الحويف)، وفي عصر السلطنة القعيطية تم تعيين قائم عنها في مناطقها في الوادي (دمون وعينات) من أبنائها، وفي فترة الاستقلال وتولي الجبهة القومية الحكم، انتسب كثير من أبناء البلدة إليها، وعند تشكيل اللجان الشعبية التي قامت مقام السلطة التنفيذية والأمنية كان رئيس اللجنة من دمون، فضلًا عن اعتلاء بعض أبنائها مناصب في الدولة بعد الاستقلال كالتربية وغيرها[31].

3- المهن والحرف المحلية ودورها في تشكيل هوية الحضرمي:

عرفت البلدة وأهلها عددًا من المهن والحرف القديمة والمستحدثة، مما حدا بالمؤلف أن يفرد لذلك فصلًا من الكتاب، عن الحالة الاقتصادية والمعيشية للبلدة[32].

وتعد مهنة الزراعة من أهم هذه الحرف وأقدمها . كما أوضحنا من قبل . رغم أن المؤلف جعلها في الحديث، الثانية بعد التجارة، وهناك حرف ومهن مرتبطة بها رغم أن المؤلف جعلها كذلك مستقلة كمهنة البقارة[33].

وإلى جانب المهن الثلاث السابقة الذكر؛ يعدد المؤلف ستَّ عشرة مهنة أخرى . هي مهن حضرمية عرفها الإنسان الحضرمي في مناطق وجوده، يمكن اعتبارها مشكِّلةً هوية الإنسان الحضرمي، وهي:

مهن: الجمالة، وعمال البناء والتشييد، عمال الوظائف المدنية والإدارية، والحدادة، والنجارة، والدباغة، والخياطة، وصياغة الذهب والفضة، والطب، والسقاية، والطباخة، والتوثيق، والنحالة، والنقل بالسيارات، وتوزيع مشتقات النفط، والمطاعم والمطابخ والمقاهي، عارِضا في ذلك تاريخ هذه المهن في البلدة ومعرفتها بها، ومقومات المهنة واستخداماتها ومردودها، ذاكرًا مَنِ امتهنها من الأسر والأفراد[34].

كما لا ينسى المؤلف أن يذكر في السياق الصناعات التي عرفتها البلدة سواء القديمة، أم الحديثة العصرية، فتأتي في مقدمتها صناعة الخزف، والجير، والخوص والنسيج.

أما المهن الحديثة والعصرية فلا يخفى على القاصي والداني ما انفردت به دمون واشتهرت به، وهي صناعة المكيفات والبرادات بما يسمى بالتجميع الصناعي لتجميع المكيفات الصحراوية والبرادات كأرقى ما وصلت إليه مصانع التجميع في البلدان العربية، وأضحت بشهرتها في كل مناطق حضرموت الداخل، بل وفي كثير من محافظات الجمهورية، خاصة المحافظات الصحراوية، حتى بلغ عدد تلك المصانع ستة مصانع.

ومن تلك الصناعات أيضًا: صناعة الثلج والآيسكريم، والسلاح، والورش الحديدية، والكسارات، والمياه الصحية، والأكياس البلاستيكية، وتربية الدواجن، ومؤسسات الإنتاج الإعلامي[35].

4- أثر التجارة والهجرة على الانفتاح الثقافي والاقتصادي للبلدة:

أدَّت التجارة والهجرة دورًا في حياة الناس؛ إذ ازدهرت حياتهم ومستوى معيشتهم، وازداد وعيهم الثقافي، فمن

مظاهر ذلك قيام بعضهم بفتح متاجرهم بتخصصات متنوعة، بعد من كانت تباع في متجر ودكان تجاري وتعاوني يحوي جميع السلع، وبل وتخصص أيام معينة لبضائع معينة، فضلًا عن وجود السوق السوداء[36].

ورغم أن الهجرة كانت أمر حتميًا للبعض سواء من الناحية الأمنية أو المعيشية، وأكانت داخلية أم خارجية، إلى ما وراء البحار (آسيا وأفريقيا) كان لها مردود اقتصادي ومادي رغم أنه لا يكاد لدى مهاجري شرق أفريقيا، فقد كان لها أثر واضح عند هؤلاء في توسعهم المعيشي والسكني والمالي، فضلًا عن من أخذ أسرهم إلى بلد المهجر[37].

a. البعد الاجتماعي والثقافي:

يمثل البعد الاجتماعي والثقافي إطارًا رئيسًا لفهم الهوية الحضرمية؛ إذ يعكس كيفية تفاعل السكان مع تراثهم وقيمهم الاجتماعية، يوضح الكتاب العادات والتقاليد في دمّون بأنها تتسم بالاستمرارية والمرونة في آنٍ واحد، بدءًا من مراسم الزواج والمناسبات الدينية، مرورًا بالاحتفالات المحلية، وصولًا إلى الأعراف اليومية التي تنظم العلاقات بين الأفراد والأسر والعشائر.

ويبرز التعليم والدين محورين متكاملين في بناء الهوية الحضرمية، فقد احتضنت البلدة الكتاتيب والمعلامات والمدارس، وتولى العلماء المحليون دورًا محوريًا في نقل المعارف الدينية والعلوم الشرعية، مما ساعد على ترسيخ قيم الانضباط، والالتزام، والتعلّم المستمر، وهو ما يعكس هويتها الحضرمية القائمة على العلم والدين.

أما النشاط الثقافي والتراثي، فقد شمل الفنون الشعبية، والشعر، والحكايات المحلية التي تشكل ذاكرة جماعية متجددة، هذا النشاط قد أسهم في حفظ التراث ونقله للأجيال الجديدة، وأبرز ملامح القيم الحضرمية من كرم، وشجاعة، وحكمة، وحفاظ على التقاليد.

1- العادات والتقاليد: الطقوس الاجتماعية، الأعراف، الاحتفالات:

لم تكنْ دمون بعيدة عن تريم، بل هي جزء منها إذا استثنينا التقسيم السياسي في مُدَدٍ مختلفة، وهي جزء من حضرموت كذلك، لذا فإن العادات والتقاليد هي نسخة أو نقل لما يجري في تريم وحضرموت باختلافات طفيفة تفرضها طبيعة المجتمع ونشاطه، وربما بعض منها قد انتهت وانقرضت أو استُبدِلت بأفضل منها.

ولسنا هنا في مقام تعداد تلك العادات والتقاليد . فدونك الكتاب هي فيه مفصَّلة . وهي مختلفة المناسبات الدينية منها والاجتماعية والاقتصادية وفي أزمنة مختلفة وخلال السنة وفي جميع شهورها[38].

منها: قناصة الوعول (القنيص) التي لمَّا تزلْ إلى اليوم، رغم تلاشيها في مناطق أخرى، وما يجري فيها من أحكام، بل وترتيبات قبل القنيص وبعده[39].

ومنها: المدادات والمخارج التنفسية، وعادات الزواج وما يصاحبه من طقوس، وعادات الوفاة، وجميع مظاهر اللبس والسكنى والمأكل، وواقع المرأة [40].

2- التعليم والدين: المدارس والكتاتيب، العلماء والمراكز العلمية، تأثيرها على الثقافة العامة:

انتشر التعليم الأولي الذي يتمثل في المعلامات والكتاتيب ورياض الأطفال، ومن ثم التعليم الثانوي الذي يتمثل في المدارس، ومنها مدارس التعليم الحكومي والمدارس التعليمية الأخرى، كما إن لكل منها نظامًا تعليميًا، وظهور العلماء الذين حملوا على عاتقهم نشر العلم وتعليم النشء[41].

أما الأوضاع الدينية فاللافت للناظر كثرة مساجد البلدة مثلها مثل بقية مناطق حضرموت، رغم صغر مساحتها، ومع ذلك فلها جامع واحد تقام فيه صلاة الجمعة والعيدَيْن، مثل تريم، وإلى وقت قريب كثرة المساجد[42] نتيجة لاتساعها، بل وتعدَّدت فيها الجمع

حتى وصلت إلى أكثر من سبعة، شأنها في ذلك شأن حارات تريم ومناطق حضرموت[43]، فضلًا عن مصليات النساء التي انتشرت أيضًا[44].

3- النشاط الثقافي والتراثي: الفنون الشعبية، الموسيقى، الشعر، الروايات المحلية:

تأسس أول نادٍ بالبلدة سنة 1958م وسُمِّي بالنادي الثقافي، غير أنَّ السلطات القعيطية أغلقتْه واستبدلته بالنادي الرياضي سنة 1962م، ولعل سبب ذلك يعود إلى تخوُّفِها من النزعة الثورية التحررية، وفي سنة 1964م سمي باسم نادي العروبة الثقافي الاجتماعي الرياضي[45].

وتكونت بعد ذلك فرق رياضية أخرى، ومع أنَّ النَّواة ظهرت لوحدة تلك الأفرقة وتشكيل اتحاد وهي البذرة لتكوين فريق واحد بمسمى نادي دمون، غير أنَّه لم يتكوَّن ويشهر بعد[46].

وظهر في البلدة شعراء أقرضوا الشعر بنوعيه الحكمي والحميني، وبأغراضه المختلفة، كما وجدت الفنون المختلفة من الفن التشكيلي، والفن الغنائي، وفن الدان، والطرب والغناء، وآلاته الموسيقية، ولعل ظهور مهرجانات الزواج الجماعي الفنية التي امتازت به البلدة سبب في بروز مواهب فنية من البلدة، إلى جانب الفن المسرحي أو التمثيلي الذي بدأ من طلاب المدارس على مسارح أحواشها، والرقص الشعبي من الرزيح، وبني مغراة، والشبواني، ورقصات القنيص (الدخلة والزف والريحة) والظاهري والزربادي والقفزان، والمخدرة[47].

أما الألعاب التراثية التي يمارسها الرجال والأولاد والبنات، فقد عدَّد المؤلف عددًا منها، والتي منها اليوم في خبر كان، مفصّلًا كيفية لعبها[48].

ولأن البلدة تعد مَصِيفًا من مصايف أثرياء تريم، لما تحتويه من أشجار ونخيل ظليل وجو منعش وماء عذب فرات، فكانت منتزهًا سياحيًا أقيمت فيه عدد من المنتزهات السياحية والمسابح، ربما تعد بالكثرة من أي منطقة أخرى[49].

a. البعد الرمزي والشعبي

يؤدي البعد الرمزي والشعبي دورًا جوهريًا في إظهار الهوية الحضرمية في دمّون، فتظهر الألعاب الشعبية للأطفال والشباب كوسيلة للحفاظ على القيم الاجتماعية، مثل التعاون، والصبر، والمنافسة الشريفة، إلى جانب تعزيز روابط الجماعة، هذه الألعاب ليست مجرد تسلية، بل هي إطار اجتماعي يسهم في نقل الثقافة المجتمعية وقيمها إلى الأجيال الجديدة.

بالإضافة إلى ذلك، يقدم الكتاب سردًا عن الشخصيات التاريخية التي عاشت في دمّون أو ارتبطت بها؛ إذ تمثل هذه الشخصيات رموزًا محلية تجسد القيم الحضرمية العليا مثل الشجاعة، والحكمة، والوفاء، كما أن الأساطير المحلية والقصص الشعبية التي تناقلتها الأجيال تسهم في تعزيز الإحساس بالهوية والانتماء، وتشكّل عناصر رمزية متماسكة يمكن من خلالها قراءة ملامح الهوية الحضرمية في سياقها الاجتماعي والتاريخي.

b. الألعاب الشعبية وتأثيرها على الهوية الجماعية للأطفال والشباب:

منها الألعاب الجماعية، مثل لعبة الطيبان والقِلِة وريس بيد، والألعاب الرياضية البدنية كقفز العوشر والخية وراوندس، وكلها تدعو إلى التعاون والصبر والحداقة والشجاعة التي يجب على الشباب والأطفال أن يتمتعوا بها.

c. الشخصيات التاريخية كرموز محلية تمثل القيم الحضرمية:

كانت هناك بعض الشخصيات التي لا تنسى، وكان لها الأثر الإيجابي في البلدة؛ لما تمتعوا به من صفات حميدة تعدَّى أثرها إلى الغير وخاصة في الجانبين الاجتماعي والعلمي، وتفانت في خدمة

البلدة، مما دعا بالمؤلف الذي عاصر بعضًا منها أن يفرد الحديث عنها، وهي بمجملها تمثل رموزًا وأيقونات تمثل القيم الحضرمية(50).

d. الأساطير المحلية والرموز الثقافية التي تعكس الهوية الحضرمية:

تؤدي الأساطير المحلية والرموز الثقافية دورًا محوريًا في تشكيل الهوية الجماعية لأي بلد؛ لأنها تعبر عن الذاكرة الشعبية والوعي الجمعي المتراكم عبر الأجيال، من خلال ترسيخ الانتماء والولاء لرموز البلد الذين يمثلون الشجاعة والحكمة والتضحية، مما يعزز الإحساس بالفخر والانتماء للوطن الأم.

يتضح من القراءة الوصفية للكتاب أنّ هذه الأبعاد – السياسي، والاقتصادي، والاجتماعي، والثقافي، والرمزي – ليست متباينة، بل هي مترابطة بشكل عضوي، فالسياسة تؤثر في الاقتصاد، والاقتصاد يشكّل إطارًا اجتماعيًا، والاجتماع يعكس الثقافة، والثقافة تولّد رموزًا وهوية مستمرة، هذا التكامل يوضح أن الهوية الحضرمية في دمّون هي نتاج عملية تراكمية طويلة، تتجاوز الفرد لتشمل الجماعة، ولتربط الحاضر بالماضي في نسق متماسك يُبرز السمات الجوهرية للهوية الحضرمية.

تسهم الألعاب الشعبية والشخصيات التاريخية والأساطير المحلية في تعزيز الهوية والانتماء الجماعي، فهي رموز ثقافية تعكس القيم الحضرمية في السلوك الاجتماعي والممارسات اليومية.

المبحث الثالث

قراءة تركيبية – دمون والهوية الحضرمية

أولًا: دمون نموذج مصغر للهوية الحضرمية

تشكل بلدة دمّون نموذجًا مصغّرًا للهويّة الحضرمية؛ إذ تمثل فضاءً يمكن من خلاله رصد تفاعل العناصر المتعددة للهوية الحضرمية، فكما توضح الدراسة في الكتاب، تجمع البلدة بين الثوابت التاريخية والاجتماعية والثقافية التي تعكس القيم الحضرمية الأساسية، وبين عناصر التغير التي فرضتْها التحوُّلات السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

إنَّ دمّون ليست حالة منعزلة، بل مثالًا حيًّا لكيفية تكامل الهوية الحضرمية في بلدات حضرمية صغيرة، مما يسمح بفهم أعمق للهوية على مستوى الوادي ككل.

1- إبراز أوجه التشابه بين دمون وبقية المدن والبلدات الحضرمية الكبرى:

عادةً ما تكون واضحة نتيجة الارتباط الجغرافي والتاريخي والاجتماعي المشترك، وهي عناصر مشتركة تعكس الهوية الجامعة من خلال الآتي:

أ- اللغة واللهجة المحلية.

ب- العادات والطقوس في المناسبات الدينية والأعياد وغيرها.

ت- الزي واللبس الشعبي التقليدي والأكلات المتشابهة.

ث- النظام الاجتماعي.

ج-الأنشطة الاقتصادية من الزراعة والتجارة وغيرها.

ح-نمط العمران والبناء.

خ-الولاءات الدينية والمذهبية.

د- المناسبات الدينية والاجتماعية.

ذ- الترابط الجغرافي والبيئي.

ثانيًا: عناصر الاستمرارية

يُبرِزُ الكتاب عناصر عدَّة للحفاظ على الاستمرارية في الهوية الحضرمية:

1- الثوابت الدينية والتعليمية: تمثل الكتاتيب والمدارس الدينية، والعلماء المحليون، حجر الأساس الذي يضمن استمرارية القيم الحضرمية.

2- الثقافة المجتمعية: العادات والتقاليد، والأنشطة الاجتماعية، والاحتفالات المحلية، تحافظ على الترابط المجتمعي وتعزز الانتماء للهوية الحضرمية.

3- الاستقرار العمراني: استمرار النسيج السكني التقليدي والبنية العمرانية للبلدة يعكس تمسك السكان بتاريخهم وموروثهم، ويشكل عنصرًا ماديًا للحفاظ على الهوية.

هذه العناصر تمثل الخطوط العريضة للهوية الحضرمية في دمّون، وتوضح كيف يسهم كل بعد اجتماعي وثقافي في تعزيز الانتماء الجماعي والمحافظة على الهوية عبر الزمن.

1- القيم الدينية والاجتماعية والثقافية المستمرة عبر القرون:

بالتمسك بالعقيدة الإسلامية، واحترام العلماء، وبر الوالدين وصلة الرحم، واحترام الكبير، وتوقير الصغير، والكرم وحسن الضيافة، والقناعة والشهامة والمروءة والعفاف، والاعتزاز بالأنساب عند بعض القبائل.

2- الاستقرار العمراني والحفاظ على النسيج المجتمعي التقليدي.

يعد الاستقرار العمراني والحفاظ على النسيج المجتمعي التقليدي من العوامل الجوهرية في استمرار الهوية الثقافية والاجتماعية لأي مجتمع، ومن جوانب هذا الأثر:

أ- تعزيز التواصل الاجتماعي بالاستقرار في أماكن سكنية متوارثة (الأحياء القديمة) والجيرة المستمرة تخلق الثقة والتعاون،وتضمن انتقال العادات من جيل إلى جيل.

ب- الحفاظ على العادات والتقاليد.

ت- دعم التعليم بأنواعه.

ث- استمرار البناء على نمط العمارة التقليدية.

ج- تقوية قيم التعاون والتكافل.

ح- تقليل التفكك الأسري والاجتماعي.

ثالثًا: عناصر التحول والتكيف:

في المقابل، يُبرِزُ الكتابُ أيضًا عناصرَ التحوُّلِ والتكيُّفِ التي شهدتها البلدة في سياق الحداثة والتغيرات الإقليمية:

1- التغيرات الاقتصادية: تنوُّع مصادر الرزق، وتوسع التجارة، واعتماد تقنيات جديدة في الزراعة والحرف.

2- الهجرة والتواصل الخارجي: أثر الهجرة إلى خارج الوادي على تبني خبرات ومعارف جديدة من دون المساس بالقيم الحضرمية الأساسية.

3- التعليم الحديث والتكنولوجيا: إدخال المدارس الحديثة والتأثير الثقافي الخارجي أسهم في تعديل بعض أنماط الحياة، مع الحفاظ على العناصر الجوهرية للهوية.

إن هذه التغيرات تؤكد قدرة الهوية الحضرمية على التكيف مع المستجدات، وهو ما يعكس مرونتها وقوَّتها في الوقت نفسه؛ إذ لا تهدد الثوابت الأساسية، بل تعيد إنتاجها في سياقات جديدة.

1- التغيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية في القرون الأخيرة:

وقد أشرنا في أثناء البحث إلى تلك المتغيرات.

2- تأثير الحداثة والتعليم والهجرة في نمط الحياة المحلي:

سواء بشكل إيجابي أو سلبي، وتفاوت التأثير حسب المجتمع ومدى تمسكه بهويته، ومن أبرز ذلك:

أ- تغير القيم والسلوك الاجتماعي.

ب- ضعف الروابط العائلية.

ج. تغير في أنماط المعيشة.

رابعًا: العلاقة بين الهوية المحلية والهوية الحضرمية الكلية

تكشف دراسة دمّون عن علاقة وثيقة بين الهوية المحلية الجزئية والهوية الحضرمية الكلية، حيث تمثل البلدة جزءًا من نسيج حضرموت الاجتماعي والثقافي الأكبر، فالهويات المحلية، مثل دمّون، تعكس مكوّناتٍ

أوسع للهويات الحضرمية من خلال:

a. القيم المشتركة: مثل الدين، والالتزام بالتعليم، والكرم، والشجاعة، والحفاظ على العادات.

b. الرموز الثقافية: الشخصيات التاريخية، والألعاب الشعبية، والفنون التقليدية، التي تنقل معاني الحضرمية للجيل الجديد.

3- الاستمرارية والتجدد: الحفاظ على الثوابت مع تبني عناصر جديدة يعكس الطبيعة الديناميكية للهوية الحضرمية.

وبذلك، فإن دمّون لا تُظهر الهوية الحضرمية كظاهرة ثابتة، بل كنظام متكامل من القيم والممارسات، يتفاعل مع البيئة المحيطة والتاريخ الطويل، ويتيح فهمًا مركبًا للهوية الحضرمية من خلال قراءة محلية دقيقة.

المبحث الرابع

دلالات واستنتاجات

أولًا: إسهام دراسة دمون في فهم الهوية الحضرمية:

تؤكد قراءة البلدة كما وردت في كتاب "دمّون: قراءة في ماضيها والحاضر" أنّ دراسة بلدات صغيرة يمكن أن تكشف الكثير عن الهوية الحضرمية ككل، فدمّون تمثل نموذجًا حيًا للكيفية التي تتفاعل فيها عناصر الهوية المحلية مع القيم الحضرمية الجامعة، وتظهر هذه الدراسة أنّ الهوية الحضرمية ليست مجرد تصوّر نظري، بل هي واقع عملي متجسّد في الممارسات اليومية، والطقوس الاجتماعية، والعادات، والتعليم، والنشاط الثقافي.

كما تبين أنّ تحليل البلدات الصغيرة يوفّر فرصًا لفهم الديناميات الداخلية للهويات الحضرمية، بما في ذلك التوازن بين التقليد والانفتاح، وبين الاستمرارية والتغيير، وهو ما قد يغيب عند دراسة المدن الكبرى فقط، وبذلك، تُصبح دراسة دمّون أداة لفهم أعمق للعلاقة بين المكان والمجتمع والهوية، مع التركيز على الجوانب الرمزية والثقافية والاقتصادية التي تشكّل الشخصية الحضرمية.

ثانيًا: قيمة كتاب دمون في الدراسات المحلية:

يمثل الكتاب مصدرًا موثوقًا وجوهريًا في تحليل الهوية المحلية؛ إذ يجمع بين السرد التاريخي والتوثيق الاجتماعي والثقافي، ويبرز دوره في الدراسات الحضرمية من خلال:

1- توثيق الحياة اليومية: تقديم معلومات دقيقة عن أوضاع السكان، والأنشطة الاقتصادية، والعادات والتقاليد.

2- إبراز التراث الثقافي: تسليط الضوء على الفنون الشعبية، والألعاب، والشخصيات التاريخية، بما يعزز الوعي الثقافي.

3- ربط المحلي بالكلّي: إظهار كيفية انعكاس الخصوصيات المحلية على الهوية الحضرمية العامة.

إن هذا الكتاب لا يقتصر على تقديم سرد تاريخي، بل يتيح إطارًا تحليليًا يمكن للباحثين الاعتماد عليه في دراسات لاحقة، سواء على مستوى بلدات أخرى أو على مستوى وادي حضرموت ككل.

الخاتمة:

توصلت هذه الدراسة إلى أنّ دمّون تمثل نموذجًا مصغرًا للهويّة الحضرمية؛ إذ تتجلى فيها عناصر الاستمرارية والتغير، بين التقليد والانفتاح، وبين المحلي والكلّي، إن تحليل مكونات الهوية في البلدة – السياسي، والاقتصادي، والاجتماعي، والثقافي، والرمزي – يوضح كيف يمكن للهوية الحضرمية أن تحافظ على ثوابتها مع التكيف مع المتغيرات.

أكدت الدراسة أنّ الكتاب يشكل مصدرًا قيّمًا لتوثيق الهوية المحلية وفهمها ضمن السياق الحضري والريفي، وأن دراسة بلدات مثل دمّون تتيح قراءة دقيقة للهوية الحضرمية في مختلف مستوياتها.

أخيرًا، إن البحث يفتح المجال لدراسات مستقبلية يمكن

أن تعمّق فهم العلاقة بين المدن والبلدات والهوية الثقافية، وتسهم في الحفاظ على التراث الحضري والاجتماعي في حضرموت.

وتوصي الدراسة بالآتي:

ـ إجراء بحوث مماثلة لبلدات حضرمية متعددة، لمقارنة التجارب المحلية وفهم الاختلافات والتشابهات في الهوية.

ـ تشجيع مشاريع لتسجيل العادات، والألعاب الشعبية، والشخصيات التاريخية في البلدة والقرى المجاورة، لتوثيق التراث المحلي.

ـ دراسة كيفية تأثير التغيرات الاقتصادية والاجتماعية والتعليمية في الهوية الحضرمية، مع إبراز عناصر الاستمرارية لتحليل العلاقة بين الهوية والحداثة.

الهوامش:

(1) إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط، ج2 صـ998.

(2) برهان غليون: اغتيال العقل، صـ88.

(3) المشهور: بغية من تمنى صـ27.

(4) المصدر نفسه صـ 74 ـ 79.

(5) بامطرف: دمون، صـ 38.

(6) صحيفة الطليعة: صحيفة سياسية أسبوعية، مطبوعة أصدرها رائد الصحافة الحضرمية أحمد عوض باوزير سنة 1959م (الفردي: في حضرة رائد الطليعة) ومن مقالاته: ليس لهؤلاء مكان في مجتمعنا (العدد 1967/399م)، اعترافات الثائر الحقيقي (العدد 1967/404م).

(7) بامطرف: دمون صـ 38.

(8) باوزير: صفحات من التاريخ الحضرمي صـ 87.

(9) بامطرف: دمون صـ 54، 55.

(10) بامطرف: دمون صـ 37.

(11) المصدر نفسه والصفحة.

(12) عبدالله العيدروس بن أبي بكر السكران بن عبدالرحمن السقاف: سلطان الأولياء، صوفي وقته، ذو أخلاق رضية، صنف في التصوف، توفي بتريم سنة 865هـ (الشلي: المشرع الروي 152/2).

(13) علي بن أبي بكر السكران بن عبدالرحمن السقاف: المعروف بالشيخ علي، صاحب البرقة المشيقة، وغيره، والزاوية الشهيرة، توفي بتريم سنة 895هـ (الشلي: المشرع الروي 215/2).

(14) علي بن شيخ بن محمد بن شهاب: السيد النسابة العلامة، ذو الأعمال الباهرة، والآثار القيمة، والهمة العالية، والمزارع الواسعة، باذلًا جهده في إصلاح المجتمع والقبائل المسلحة، وإخماد الفتن، متنقلا في ذلك بين البوادي والحواضر، وزّع مكرمة سلطان المغرب على العلويين، توفي بالشحر سنة 1203هـ (المشهور: شمس الظهيرة146/1).

(15) الأرياني: نقوش مسندية، النقش ir32 صـ204 .205.

(16) بامطرف: دمون صـ 75.

(17) بامطرف: دمون صـ 336.

(18) بامطرف: دمون صـ 338.

(19) بامطرف: دمون صـ 91.

(20) بامطرف: دمون صـ 91، 95.

(21) بامطرف: دمون صـ 143.

(22) بامطرف: دمون صـ 151.

(23) بامطرف: دمون صـ 236 ـ 273.

(24) بامطرف: دمون صـ 232 ـ 236.

(25) بامطرف: دمون صـ 595 ـ 612.

(26) بامطرف: دمون صـ 110.

(27) بامطرف: دمون صـ 590.

(28) بامطرف: دمون صـ 75.

(29) بامطرف: دمون صـ 117.

(30) بامطرف: دمون ص102 ـ 220.

(31) بامطرف: دمون صـ 93 ـ 102.

(32) بامطرف: دمون صـ 229.

(33) مهنة البقارة: تعني شق الأرض واستصلاحها للزراعة بواسطة الثيران والبقر، وتنحصر في قبائل آل بكر وآل بن محفوظ، وآل بريك (بامطرف: دمون صـ 273).

(34) بامطرف: دمون صـ 229 ـ 317.

(35) بامطرف: دمون صـ 318 ـ 329.

(36) بامطرف: دمون صـ 235.

(37) بامطرف: دمون صـ 590.

(38) بامطرف: دمون صـ 402 ـ 470.

(39) بامطرف: دمون صـ 471 ـ 498

(40) بامطرف: دمون صـ 498 ـ 587.

(41) بامطرف: دمون صـ 595 ـ 612

(42) ووصل عددها إلى أكثر من 24 مسجدا، بعد إن كانت عشرة مساجد.

(43) المشهور: بغية من تمنى صـ 39.

(44) بامطرف: دمون صـ 652.

(45) بامطرف: دمون صـ 655.

(46) بامطرف: دمون صـ 665.

(47) بامطرف: دمون صـ 669 ـ 723.

(48) بامطرف: دمون صـ 723 ـ 746.

(49) بامطرف: دمون صـ 747 ـ 750.

(50) بامطرف: دمون صـ 735 ـ 819.

المصادر والمراجع:

1- إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة، دار الدعوة، دون تاريخ.

2- الأرياني، مطهر علي: نقوش مسندية، الطبعة الثانية، 1990م، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء.

3- بامطرف، عمر عبدالله: دمون قراءة قي ماضيها والحاضر، الطبعة الأولى، 1441هـ/2020م، مكتبة تريم الحديثة.

4- باوزير، سعيد عوض (ت 1398هـ) صفحات من التاريخ الحضرمي، مكتبة الثقافة، عدن، اليمن، بدون تاريخ.

5- برهان غليون: اغتيال العقل، الطبعة الثالثة، 1990م، مكتبة مدبولي، القاهرة.

6- الشلي، محمد بن أبي بكر (ت1093هـ) المشرع الروي في مناقب السادة الكرام آل ابي علوي، الطبعة الاولى، 1319هـ، المطبعة العامرة الشرفية، مصر.

7- الفردي، صالح حسين الفردي: قي حضرة رائد الطليعة أحمد عوض باوزير، الطبعة الأولى، 1443هـ/2022م، مركز حضرموت للدراسات والنشر، المكلا.

8- المشهور، عبد الرحمن بن محمد (ت 1320هـ) شمس الظهيرة في نسب أهل البيت من بني علوي، وتعليقاتها، حققه وعلق عليه: محمد ضياء شهاب، عالم المعرفة، جدة، بدون تاريخ.

9- المشهور، عمر بن أحمد (ت1425هـ) بغية من تمنى في توضيح معالم تريم الغناء، دراسة وتحقيق: أ.د. محمد يسلم عبدالنور، الطبعة الأولى، 1445هـ/2024م، تريم للدراسات والنشر.

Highlighting the Hadhrami Cultural Identity in the Writings of Hadhrami Towns A Study of the Book *Damoon by Bamtaraf as a Model*

Mohammed Yaslam Abd Al-Noor

Abstract

The book "Damoon: A Reading in Its Past and Present" by Omar Abdullah Bamtaraf is considered one of the most comprehensive and significant works addressing the history of Hadhrami towns, specifically the town of Damoon in Tarim. It serves as an encyclopedic reference that explores all dimensions of the town's history—political, economic, social, scientific, and architectural—from its earliest appearance to the present day. Its extensive length of 850 pages attests to its scope and depth.

This book highlights the Hadhrami cultural identity. Although it focuses primarily on Damoon, a significant portion of its content discusses the city of Tarim, of which Damoon is currently a district located in the northern part, despite not having historically been part of it.

The author's reading of his hometown, which also reflects a broader view of Tarim, serves as a lens through which the larger geographical and cultural entity of Hadhramaut is examined. This is due to the shared and overlapping features and characteristics that define Hadhrami identity—particularly in terms of traditions and customs that fall under the domain of anthropology (human history), as well as cultural arts that have played a significant role in shaping the unique identity of these towns and villages. These elements are thoroughly analyzed in the study following a discussion of the book's content, methodology, and sources.

Keywords: Hadhrami Cultural Identity – Damoon– Traditions and Customs – Cultural Arts.